مع الله

خالد بن سعيد

رضي الله عنه

من أخلص العمل لله .. فلن يحزنه شيء

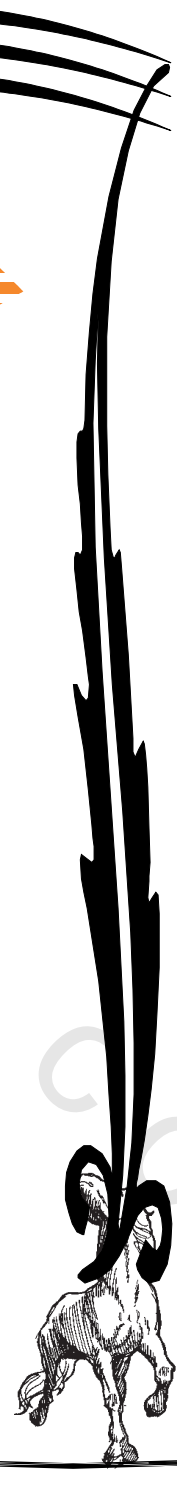

obeikandl.com

« كيف أصل إليه ».

همس بها الفتى خالد لنفسه وهو جالس في حجرته وقد راحت الأفكار تدور في رأسه لأكثر من نصف ساعة.

وتابع قائلا في حيرة:

أنا أصدقه، لم نعهد عليه كذبا قط طيلة حياته، أخلاقه ليست محل شك، نسبه طيب ومعروف..

يكفي أن أبا بكر الصديق صدقه..أفلا أصدقه أنا ؟!

ثم وضع يده على رأسه وقال في حنق:

ليست هذه هي المشكلة الآن، أنا أصدقه، أصدقه بالفعل..

المشكلة الكبرى في أبي الذي لن يسمح أبدا بذلك..

أبي.. سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن مناف.

ستمنعه زعامته ومكانته في قومه من أن يسمح لي بالإيمان بمحمد..

سيعتبر أن إسلام ابن رجل سيد في قومه مصيبة وعار يجب أن يمحى..

وسيضغط علي بالمال وسلطته الأبوية بكل ما أوتي من قوة لا شك..

وضرب يده على أريكته وهو يقول في عصبية يائسة:

- ما الحل؟ ما الحل إذن ؟!

ظل الفتى خالد أياما وأياما يفكر في الأمر دون جدوى، وهو يتابع أخبار النبي محمد ﷺ من بعيد..

كلما جاءت سيرته في حديث أنصت بكل جوارحه ليتلقى كلمة من هنا أو كلمة من هناك، ثم ينتهي الحديث وقد زاد شوقه إليه دون أن يجد حلا لمشكلته..

ولم يكن الفتى خالد يتشوق إلى لقاء رسول الله ﷺ والإسلام بين يديه؛ لأنه فقير مهضوم الحق أو لأنه عبد ذليل يبحث عن كرامة مفقودة أو عزة سليبة .

بل كان ثريا..ثريا جدا.. يعيش في بيت مرفه، يأكل أطيب الأطعمة ويلبس أفخر الثياب.

طلباته كلها مجابة..

وهو فوق ذلك ابن سيد من أسياد قريش..

وهو شاب نابه ذكي هادئ السمت يوصف بالعقل والرزانة..

إذن خالد لم يكن ينقصه شيء. . ما الذي يجعله يفكر في أمر سيجلب عليه المتاعب؟!

إنها فطرة الإيمان التي فطر الله عليها الأسوياء، ونداء العقيدة الذي لن يستطيع قلب نقي طاهر أن لا يجيبه.

شغلت الأفكار رأس خالد كثيرا.. وأجهدته كثيرا..

كان يعر ف أن عدوه الخوف من أبيه.. والتردد..

و..

« لا تدفعني يا أبي ».

صرخ بها خالد بكل قوته لأبيه الذي أوقفه أمام حفرة من النار يريد أن يدفعه فيها بلا رحمة.. وبينما يحاول الأب جاهدا أن يلقى بابنه في الحفرة وهو يقاوم، إذا برسول الله ﷺ يظهر لخالد ويمد يمينه المباركة لتمسك بإزاره فيأخذه بعيدا عن النار واللهب.

وفتح خالد عينيه بعد أن صحا من نومه.. ولم يستغرق وقتا طويلا في تفسير ما رآه..

أخيرا لقد قضت الرؤية على كل تردد لديه.. ولم يكن الأمر يحتاج إلى تفكير أكثر من ذلك..

وأخيرا.. اتخذ خالد قراره.. واتخذ طريقه إلى أبي بكر الصديق ليخبره بما قرر.. ويذهب به إلى النبي محمد ﷺ.

وما إن قابل أبا بكر حتى حكى له رؤياه.. فابتسم له أبو بكر قائلا:

– إنه الخير أريد لك، وهذا رسول الله ﷺ فاتبعه، فإن الإسلام حاجزك من النار.

وما هي إلا دقائق.. وكان خالد بن سعيد بن يدي النبي محمد ﷺ..

وأحب الفتى النابه أن يسأل عما أتى به الرسول ﷺ وإلى أي شيء يدعو، فيقول له ﷺ:

«تؤمن بالله وحده، لا تشرك به شيئا، وتؤمن بمحمد عبده ورسوله، وتخلع عبادة الأوثان التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تضر ولا تنفع».

كلام مقنع ودعوة لا تبغي مصلحة شخصية، وحديث لا يمكن الرد عليه إلا برد واحد:

« أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ».

نطق بها قلب خالد وعقله قبل أن ينطق بها لسانه..

وأخذ طريقه عائدا إلى بيته وهو يعلم تمام العلم أنه سيبدأ أولى معارك الإيمان..

مع أبيه.

* * *

« أصحيح أنك اتبعت محمدا وأنت تسمعه يعيب آلهتنا ».

صرخ بها سعيد بن العاص في كامل ثورته، في وجه ابنه خالد الذي قال في ارتباك:

– أعتقد أنه صادق.. ولقد صدقته وآمنت به واتبعته.

ولم يكد أبوه يسمع تلك الكلمات من ابنه خالد، حتى فارت ثورته ولم يتمالك نفسه، فأخذ ينهال عليه ضربا بكل قوته..

وبعد أن فرغ من ضربه دفعه في غرفة مظلمة في داره وحبسه فيها، وراح يعذبه بالجوع والظمأ..

كانت خطة سعيد بن العاص أن ابنه المرفه المنعم لن يتحمل يوما أو يومين على الأكثر على تلك الحال التي لم يتعودها قط.. وأنه لا محالة سيستسلم ويأتي إليه راكعا ناسيا ما اعتنقه من أفكار جديدة.

إلا أن خالدا لم يستسلم..

وتمر الأيام وراء الأيام وهو مصر على موقفه إصرارا أذهل أباه.

لم تنجح الحيلة ولم يفلح الجوع والعطش.. ولم يجد سعيد بن العاص بدا من أن يزيد من إيذائه لابنه جزاء ما فعل..

وبكل ما يمتلك من قسوة.. أخذ ابنه «خالدا » إلى صحراء مكة في حرها اللافح، ليدس جسده بين أحجار ثقيلة ملتهبة ثلاثة أيام كاملة لا يبلل شفتيه بقطرة ماء.

وفي الوقت الذي توقع فيه أبوه انهيار ولده خالد لا محالة، إذا به يزداد صمودا، إلى الدرجة التي جعلته يصاب باليأس منه ويعود به إلى داره.

وفي المنزل ظل الأب يتحاور مع ابنه بشتى الطرق.. تارة بالترغيب وتارة بالتهديد والوعيد..

إلا أن الصمود عند خالد كان قد وصل إلى منتهاه، فقال لوالده في حزم وتحد:

لن أدع الإسلام لشيء، وسأحيا به وأموت عليه.

بعدها.. أيقن سعيد بن العاص أن الطريق بات مسدودا مع ولده، وأنه قد خسر معه المعركة، وأمام ما وجد من ابنه من عصيان، لم يجد أمامه إلا أن يطرد ابنه من بيته، فقال له وهو في قمة الغضب:

– إذن فاذهب عني يا لكع، فواللات لأمنعنك القوت.

وينظر إليه خالد نظرة عتاب وتحد قائلا:

– الله خير الرازقين.

لم تكد تبدأ الرحلة.. حتى بدأ خالد التضحية..

ليس سهلا أن يترك شخص النعيم والرفاهية ورغد العيش ليجد نفسه بين يوم وليلة في العراء بلا مأوى ولا طعام ولا أمان.

ليس سهلا أن يتحدى شخص عواطفه تجاه أبيه فيعصيه..

لكنه الإيمان..فوق كل شيء. ..

فوق الجوع والحرمان والعذاب والحب.

لقد نجح خالد في أول اختبار له، فكان سهلا أن ينجح في الثاني.

الهجرة إلى الحبشة.

في السنة الخامسة للهجرة دعا الرسول ﷺ المسلمين إلى الهجرة عند الملك العادل النجاشي.

ويمكث خالد مع إخوانه فيها خمسة عشر عاما، إلى أن يتلقوا أمر الرسول ﷺ بالعودة إلى المدينة قبيل فتح خيبر في السنة السابعة للهجرة.

من ساعتها.. ولا تأتي غزوة مع رسول الله ﷺ إلا ويغزو فيها.

واقتنع الرسول ﷺ بصدق خالد وقدراته في القيادة والإدارة، فعينه واليا على اليمن.

وتوفي الرسول ﷺ.. وجاءته الأنباء بمبايعة الخليفة الجديد أبي بكر الصديق، ليغادر خالد اليمن عائدا إلى المدينة.

وبايع المسلمون أبا بكر الصديق للخلافة..

* * *

كانت خلافة أبي بكر قصيرة، لكنها اكتظت بالحملات العسكرية والحروب والفتن من كل اتجاه.

وإلى الشام.. سير أبو بكر جيشا إليها، فإذا به يعقد لواء لخالد بن سعيد ليصبح أحد أمراء الجيش.

وبينما يستعد خالد لمهمته الجديدة، فإذا بعمر بن الخطاب يذهب إلى أبي بكر لينقل إليه اعتراضه على توليه خالد بن سعيد.. ويرفض أبو بكر عزله ويلح عليه عمر، ويفند له أسباب اعتراضه مرارا وتكرارا..

وقبل أن يأخذ أبو بكر قراره، كان الخبر قد وصل بالفعل إلى خالد بن سعيد.. وينأى خالد بنفسه عن هذا الخلاف، ويترك إمارة الجيش بكل يسر وهو يقول:

– والله ما سرتنا ولايتكم، ولا ساءنا عزلكم.

ويصل الخبر إلى أبي بكر بأن خالدا قد ترك الإمارة، فيسرع إلى بيته معتذرا له، وأخذ يحاول جاهدا أن يفسر له ما حدث.

ولم يكن الأمر مع خالد يحتاج إلى كثير، فلقد أيقن أبو بكر أن رغبته في خدمة دين الله، أعمق بكثير من رغبته في إمارة فرقة في جيش، إن كان له رغبة.

وعندها.. اطمأن أبو بكر إلى نفسية خالد المخلصة المتزنة، وسأله مع من من قادة الجيش يحب

أن يكون؟ مع ابن عمه عمرو بن العاص، أم مع شرحبيل بن حسنة ؟

وبكل تواضع الدنيا يجيب:

– ابن عمي أحب إلي في قرابته، وشرحبيل أحب إلي في دينه.

ويختار خالد حبيبه في دينه.. شرحبيل بن حسنة..

وقبل أن يتحرك الجيش جلس أبو بكر مع شرحبيل بن حسنة يوصيه بخالد بن سعيد قائلا:

– انظر خالد بن سعيد، فاعرف له من الحق عليك، مثلما كنت تحب أن يعرف من الحق لك لو كنت مكانه؛ إنك لتعرف مكانته في الإسلام..

وتعلم أن رسول الله ﷺ توفي وهو له وال..ولقد كنت وليته، ثم رأيت غير ذلك..وعسى أن يكون ذلك خيرا له في دينه، فما أغبط أحد بالإمارة.

وقد خيرته في أمراء الجند فاختارك على ابن عمه..

فإذا نزل بك أمر تحتاج فيه إلى رأي التقى الناصح، فليكن أول من تبدأ به: أبو عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل.. وخالد بن سعيد ثالثا، فإنك واجد عندهم نصحا وخيرا..

وإياك واستبداد الرأي دونهم، أوإخفاءه عنهم.

كان أبو بكر يحترم خالدا ويقدره.. ولقد كان خالد يستحق ذلك.

وانطلق خالد مجاهدا في سبيل الله في أرض المعركة بين المسلمين والروم.. حتى إذا جاء أمر الله تلقى خالد بن سعيد ضربة تعلن زفافه شهيدا في سبيله.

وسقط خالد على أرض المعركة هادئا كما كان في حياته، يبتسم لحياته القادمة في جنته الموعودة.

هنيئا لك يا خالد..

لن يفوتك النعيم والرغد بعد اليوم..

وإلى الأبد.

* * *

دروس وتحليل

١ – هل من الممكن أن تكون الأسرة عائقا أمام الالتزام ؟! وكيف يتعامل من يرغب في الالتزام مع أسرته في هذه الحالة (والد خالد بن سعيد يعوق إسلامه).

بالتأكيد كل أسرة ترغب في أن يكون ابنها ملتزما دينيا وعلى خلق، ولكنها في بعض الأحيان تضع خطوطا حمراء لهذا الالتزام، ويشيع هذا السلوك أكثر عند الأمهات اللائي يرفضن حجاب بناتهن قبل الزواج، أو مواجهة رغبتهن في لبس ملابس فضفاضة، أو عدم وضع مكياج عند خروجهن، أوالخوف على الشباب من الانخراط في حلقات مسجدية خشية الاتجاه للتطرف.

هذا يحدث في بعض الأحيان.. والذي يحدث بعدها إما استسلام من الشاب والفتاة لرغبة الوالدين، أو صدام يعلن بدء مشكلات لن تنتهي بسهولة بين الطرفين، ويكون السبب في هذا الصدام للأسف رغبة الشاب أوالفتاة في التدين الصحيح غير المنقوص.

والحل.. أن يدرك الشاب أوالفتاة خوف الوالدين ويضعانه في عين الاعتبار، فمسئوليتهما الأبوية تدفعهما إلى هذا الخوف، وعلى الأبناء أن يتحاوروا مع الآباء بشتى الطرق لإقناعهم بالسير في هذا الطريق ، وأن يسمعوا وجهة نظرهم بجدية وإمعان ويفكروا فيها من زاويتهم هم، وأن يكتسبوا ثقتهم بأفعالهم وتصرفاتهم داخل المنزل وخارجه، وشيئا فشيئا.. سيدرك الآباء حقيقة الأمر، ويطمئنون على أبنائهم.

إننا نريد من الملتزم أن يصر على طريق الالتزام دون أن يخسر والديه أو علاقته الطيبة بهما، وإذا فشل بعد كل ذلك وحدث صدام، فليكن هوالطرف الرحيم العطوف الصبور، وليتذكر كل معاني بر الوالدين، وليكن الصبر والدعاء سلاحان له على الطريق.

٢ – من يريد الالتزام.. لابد أن يتوقع العقبات في أي مرحلة من مراحل الطريق (والد خالد بن سعيد يعذبه بعد إسلامه ويطرده من بيته).

مخطئ من يتصور أن التدين طريق مفروش بالورود، فالله لم يعد بذلك في الدنيا، وأحداث السيرة وقصص الصحابة لم تقل ذلك أبدا، وليس هذا تخويفا من التدين، بل تبصرة بالطريق حتى لا يصدم من يريد أن يسلك طريق الله ببعض المشكلات التي ربما تحدث له في أول الطريق، ويعي تماما أن ذلك دلالة على أنه يسير في الطريق الصحيح، وأن الله قد بدأ مرحلة اصطفائه بإجراء اختبارات له كل حسب درجة إيمانه وتحمله..ومن الطبيعي أن ينجح من صدق إيمانه وقويت عزيمته.

إننا نقبل أن ندفع ثمنا لأي شيء مهما كان تافها، بل نتعجب من أن يطرح أي تاجر سلعة بدون ثمن، فنبدأ بالشك فيه وفي سلعته ونمتنع عن شرائها، لكننا نظن دائما أن الجنة ليس لها ثمن.. لماذا ؟

لقد دفع الصحابة ثمن المنازل الرفيعة التي نالوها في الجنة، وإذا أردنا أن ننزل منازلهم فلابد أن ندفع مثلهم.

٣- الإسلام يدعوالى التفاني في العمل والقدرة على القيادة، دون رغبة في الزعامة، والحرص على مشاعر الأخوة بين المسلمين أحد الأسس في بناء مجتمع قوي (خالد بن سعيد يقبل التنازل عن قيادة الجيش بسهولة، والخليفة أبو بكر يذهب إليه في بيته ليسترضيه خوفا من جرح مشاعره) .

التربية الإسلامية تدعو إلى تنمية المهارات والإخلاص والتفاني في العمل للإسلام والقدرة على القيادة، ولكنه لا يدعو إلى حب الزعامة.. بمعنى أن الإسلام يريد توظيف المهارات الخاصة من أجل المصلحة العامة لا من أجل الشهوة الذاتية في التحكم في الغير ونشوة إصدار الأوامر والقرارات، وعندما يشعر الشخص بذلك.. يصبح مريضا بالزعامة التي تتمكن منه، فيتمسك بها بغض النظر عن المصلحة العامة، فهو لا يريد أن يتنازل عنها مهما لحق الضرر بمن حوله.

وخالد بن سعيد كان قائدا مخلصا عندما وجد أن المصلحة العامة تقتضي نزوله عن قيادة الجيش، ونزل عنها راغبا دون إحداث بلبلة.

ثم يأتي حرص الخليفة أبي بكر على مشاعر خالد بن سعيد، ليذهب إليه بنفسه ليسترضيه خشية أن يكون قد جرح مشاعره من الموقف، وهنا يتضح لنا أحد أسرار قوة المجتمع المسلم، الذي يحرص على الترابط بين أبنائه وتوطيد أواصر الحب بينهم، مهما كانت حساسية الموقف وخطورته.

* * *

obeikandl.com